جامعـــة المنصـــورة
كليـــة الآداب

العلويون والموالى
فى العصر العباسى الأول

د. عبد المجـيد أبو الفتوح بدوى

الأستاذ المساعد بقسـم التاريخ

بســم الله الرحمـن الرحـيم

....

العلويون والموالى فى العصر العباسى الأول

د. عبد المجيـد أبو الفتوح بدوى

....

هذا البحث يهدف إلى توضيح العلاقة بين العلويين والموالى الذين قامت الدولة العباسية على أكتافهم ، لأن توضيح هذه العلاقة توضيحا علميا دقيقا يعتبر فى غاية الأهمية ، ذلك أن قضايا وتساؤلات كثيرة إجاباتها متوقفة على مدى توضيح هذه العلاقات ... فهل كان الموالى الذين وقفوا بعزم وإصرار وراء الدعوة العباسية باذلين فى سبيلها النفس والنفيس حتى قامت الدولة بجهودهم هل كان هؤلاء هواهم مع العباسيين حقا أم كان متعلقا بالعلويين ؟ ولو فرضنا جدلا أن ارتباطهم الحقيقى كان بالعلويين فلم ناصروا العباسيين ؟ وهل تحققت هذه النصرة من جانب جمهورهم وهم يعرفون حقا أنهم يناصرون بيتا غير البيت الذى ارتبطوا به والتفوا حوله ؟ أم أن الجمهور الأعظم ضلل وخدع بسبب هذا الشعار النامض (الدعوة للرضا من آل محمد) الذى رفعه العباسيون أثناء مراحل الدعوة تضليلا وتمويها على شيعة أبناء العمومة حتى يضمنوا وقوفهم إلى جانبهم ؟ أسئلة كثيرة تثار وعلى هذا البحث المتواضع أن يجيب عنها .

ولعل من المناسب قبل أن ندخل فى صميم موضوعنا أن نوضح المقصود من كلمة « الموالى » فهذه الكلمة كما يقول أصحاب المعاجم جمع مولى ، وهى تطلق على المعتِق أى السيد والمعتَق أى العبد الذى تحرر من ربقة الرق ، وهى أيضا قد تعنى ابن العم والجار والناصر والحليف والموالاة ضد المعاداة (١) ومعنى هذا أن الولاء يأتى من جهتين : إما عن طريق العتق بأن يكون المولى عبدا ثم يعتق فيصير مولى لسيده أى مرتبطا به ، ونصيرا له بسبب العتق ، وقد يكون مولى موالاة كأن يرتبط شخص بآخر عن طريق

---

(١) القاموس المحيط ؟ مادة : ولى

التحالف والنصرة ، وكان يحدث هذا الأمر بدخول غير العربى فى تحالف ونصرة مع بعض القبائل العربية فينسب اليها على أنه مولى موالاة لها . هذا من ناحية اللغة أما من حيث الاصطلاح فالموالى اسم اطلق على غير العرب من الأجناس والأمم التى دخلت فى الاسلام بعد حركة الفتوحات الإسلامية ، وكأنها بقبولها الإسلام قد عقدت تحالفا مع العرب على الولاء والنصرة ، فالكلمة بهذا المفهوم تشمل الفارسى والتركى والبربرى وغيرهم من الأجناس التى ارتضت الإسلام دينا ، واختلطت بالعرب الفاتحين ، وإن كان هذا المفهوم الواسع لمعنى (الموالى) قد ضاق فى العصر العباسى الأول — إلى حد ما — وصار ينصرف عند إطلاقه إلى العنصر الفارسى بصفة خاصة فى مواجهة العنصر العربى . على أن ابن خلدون فى مقدمته يفرق بين نوعين من الموالى على أساس إسهام كل منهما فى نصرة دولة ما فى مرحلتين مختلفتين ، قبل القيام وبعد الاستقرار ، فأكثر مايطلق اسم الصنائع عنده على الأولين أى الذين اصطنعتهم الدولة واصطفتهم ليقفوا بجانبها قبل قيامها ، وأما هؤلاء المحدثون أى الذين يلتحقون بخدمة الدولة بعد قيامها فخدم وأعوان [١] وتعريف ابن خلدون هذا لايتصادم مع المعنى اللغوى أو الاصطلاحى كما نرى ولكنه ينظر إلى الآثار والنتائج التى تتعلق بوضع كلا الفريقين فى الدولة بعد قيامها .

أما نحن فى هذا البحث فسنركز على العنصر الفارسى من بين عناصر الموالى اذ هو العنصر الذى ارتبط — فى مجموعه — عقائديا وفكريا بالنظر إلى العلويين على أنهم الأحق بإمامة جمهور المسلمين من غيرهم ، وإن كان هذا لاينفى وجود من يؤمنون بهذه النظرية من غير الفرس ، وقد بذل بعضهم جهودا فى سبيل تحقيقها ، إلا أن هذه الحالات لم تشكل نظرة عامة داخل الإطار الفكرى لهذه العناصر كما هو الحال بالنسبة للفرس .

وإذا كان لنا من كلمة فى منهج هذا البحث فإنا نؤكد أننا لن نلجأ إلى سرد الأحداث التاريخية وحكاياتها بقدر ماسنلجأ إلى الوقوف المتأنى أمام النصوص التاريخية لفهمها وتحليلها والتعليق عليها . وفى إطار هذا البحث تبرز قضايا أساسية ثلاث لابد من الوقوف عندها ومناقشتها

---

(١) المقدمة ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٨٤ ط بولاق

القضية الأولى : علاقة الموالى بالعلويين قبل قيام الدولة العباسية

القضية الثانية : شيعة العلويين والدعوة العباسية

القضية الثالثة : العباسيون فى مواجهة تطلعات العلويين وخطر الموالى .

أما عن القضية الأولى فإن هذه العلاقات أخذت تتشكل على إثر مانزل بساحة البيت العلوى من المحن والمصائب فى المراحل الأولى من ظهوره على مسرح الأحداث السياسية ، وسرعان مانمت هذه العلاقات حتى انتهت الى هذا التلاحم الوثيق بين العلويين والموالى : فاستشهاد الإمام علىّ على يد أحد الخوارج بعد هذا الفصل الدامى من الصراع بينه وبين معاوية — وهو صاحب الحق — ثم الظروف الغامضة التى أحاطت بوفاة ابنه الحسن بعد أن تنازل عن الخلافة لمعاوية ، وأخيرا مصرع الحسين بن على فى عهد يزيد بن معاوية بعد أن غدر به أهل الكوفة وخدعوه ، كل هذه الأحداث الجسام قد أسلمت إلى ظهور حركة التوابين سنة ٦٥ هـ/٦٨٤ م التى رأى أصحابها أنهم يتحملون تبعة دم الحسين ، لأنهم هم الذين دعوه ثم أسلموه وخذلوه بعد أن تخلوا عنه فى أشد أوقات الحرج والضيق ، ومن ثم فإن عليهم الآن كى يكفروا عن خطيئتهم أن يقتصوا من قتلة الحسين ، وكانت هذه الحركة بقيادة سليمان بن صرد الخزاعى ، ثم انضم أتباعه بعد مقتله فى ربيع الآخر سنة ٦٥ إلى حركة المختار بن عبيد الثقفى الذى استطاع أن يقتص من قتلة الحسين ، وأن يحقق انتصارات على جيش الأمويين إلى أن قضى على حركته مصعب بن الزبير الذى كان واليا على العراق لأخيه عبد الله [١]

والمهم فى هذه الحركة أمران : الأمر الأول أنه تمخض عنها قيام أول فرقة شيعية بالمعنى السياسى لهذا المصطلح [٢] إذ إدعى المختار الثقفى أنه يقاتل باسم محمد بن

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ١٨٦ ، ٢٦٧ — ٢٧٣

(٢) التشيع للإمام على أخذ يظهر بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة ، إذ رأى بعض كبار الصحابة أن عليا — رضى الله عنه — هو الأولى بتولى خلافة المسلمين لصفات فيه تؤهله لهذا المنصب من العلم والدين ، والسبق إلى الإسلام ، والجهاد فى سبيل الله ، والقرابة القريبة من الرسول ﷺ نسبا وصهرا ، وكان على رأس هؤلاء الصحابة : سلمان الفارسى ، وعمار بن ياسر ، وأبو ذر ، والمقداد بن الأسود ... وغيرهم . إلا أن تشيع هذا النفر لإمامة علىّ لم يقم على أساس نظرى شيعى كالذى ظهر فى فكر فرق الشيعة فيما بعد ، وإنما رأوه الأولى لأن الصفات التى تؤهله لتولى هذا الأمر ترجح مثيلاتها عند غيره من كبار الصحابة .

الحنفية ابن الإمام على ، وأن محمدا هذا هو الإمام بعد وفاة أخويه الحسن والحسين ، وصار يدعو الناس إلى التجمع حوله تحت راية هذا الإمام ، فتكونت على يديه أول فرقة شيعية عرفت باسم (الكيسانية) (١)

الأمر الثانى : أنه وضح تماما فى هذه الحركة انطواء عدد كبير من الموالى تحت لوائها وقد كانوا فى الكوفة آنذاك يشكلون معظم الكثافة السكانية بها إذا قيسوا بالقبائل العربية التى نزلت واستقرت بها بعد حركة الفتوح الإسلامية ، وقد أشارت بعض الروايات التاريخية الى أن جيش المختار الثقفى كان أكثره من الموالى (٢) فكانت هذه الحركة هى بداية الارتباط والتلاحم بين العلويين والموالى ، ذلك أن النظرية الشيعية فيما يتعلق بقضية الإمامة والتى تبلورت فى حركة التوابين كانت أكثر الأفكار ملاءمة لعقولهم ، وأشدها انسجاما مع طبيعة تكوينهم الفنى والوجدانى والتاريخى ، فالفارسى يفهم جيدا الحق الإلهى للملوك ، وكان يعترف بهذا الحق للأكاسرة ، وطالما أفهمه هؤلاء أنهم صورة مجسمة للآلهة ... إن هذا الفارسى لم يكن يستطيع أن يتصور وجود خليفة بالانتخاب فهذه الفكرة غير معهودة لديه ، وغير معقولة عنده ، وإنما المبدأ الذى يمكن أن يفهمه جيدا هو مبدأ الوراثة ، وكل الذى كان فى حاجة إليه وقد تغيرت بيئته ، واعتنق دينا جديدا هو أن ينقل ولاءه ، ويحول وجهة شعوره من أفراد أسرة مقدسة إلى أخرى ، فليس من المبالغة فى شىء أن يقال : إن البيت النبوى وقد مثله آل علىّ قد حل فى قلوب هؤلاء الفرس محل بيت آل ساسان ، مع الأخذ بعين الاعتبار اختلاف الدوافع ، ونوع العاطفة تجاه كل من البيتين (٣) .

---

(١) سميت بهذا الاسم لأن المختار الثقفى الذى تكونت على يديه هذه الفرقة كان يقال له (كيسان) وقيل إن كيسان الذى نسبت إليه هذه الفرقة كان مولى للإمام على ، وتتلمذ على يد محمد بن الحنفية وقد قام بدعوة الشيعة لإمامة محمد بعد موت أخويه : الحسن والحسين .

(الاشعرى : مقالات الاسلاميين ، واختلاف المصلين جـ ١ ص ٩١ ، والشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١٤٧)

(٢) ذكر الطبرى وابن الاثير أن مصعب بن الزبير بعد أن تغلب على المختار ، واستسلم له بقية جيشه كان فيمن استسلم ستة آلاف رجل ، منهم سبعمائة من العرب ، والباقى من الموالى ، وقد قتلهم مصعب جميعا

(الطبرى جـ ٦ ص ١١٥ ، ١١٦ والكامل جـ ٤ ص ٢٧٨)

(٣) د. محمد ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الإسلامية ص ٥٦ ، ٥٧ الطبعة الثانية

وقد أكد هذا الانعطاف من جانب الموالى نحو العلويين أسباب عدة جعلت هذا الارتباط يزداد توثقا ، ويقف الموالى باستمرار متأهبين لتلبية نداء ثوار البيت العلوى علـى مايعتقـدونه اغتصابا لحقوقهـم ، وظلمـا ينزل بساحتـهم وبساحـة أنصارهـم ، ومـن هـذه الأسباب :

١ ــ ان البيت العلوى ــ وهو الذى ينحدر من بيت النبوة ــ قد ارتبط برباط المصاهرة مع البيت الساسانى (بيت الملك فى الدولة الفارسية) وذلك بزواج الحسين بن على بشهربانوه ابنة يزدجرد (آخر ملوك بنى ساسان) فجاء الإمام الرابع من أئمة الشيعة (الاثنا عشرية) وهو على زيد العابدين بن الحسين حفيدا لكلا البيتين ، وأصبح الأئمة من نسله من وجهة نظر الموالى لايمثلون حق النبوة فقط ، بل يمثلون حق الملك أيضا (ومن ذلك تولدت النظرية السياسية التى أصبحت عقيدة غير متنازل فيها لدى الفرس : وهى أن العلويين وحدهم يحملون حق التاج ، وذلك بصفتهم المزدوجة فهم وارثوا آل بيت النبى وآل ساسان معا) وقد عبر أبو الأسود الدؤلى ــ وهو من شيعة على ــ عـن هـذا الاتجاه عندمـا ركـز فـى مدحـه لعلـى زين العابدين علـى هذا النسب المزدوج بقوله :

وإن وليدا بين كسرى وهاشـم ... لأكرم من نيطت به التمائـم
هو النور نور ا لله موضع سـره ... ومنبع ينبوع الإمامـة عالـم (١)

٢ ــ ومن ذلك شعور الموالى بانخفاض مستواهم الاجتماعى والاقتصادى فى ظل الدولة الأموية وإحساسهم بوقوع ألوان من الاضطهاد والحرمان عليهم ، فارتبطت أحلامهم وأمانيهم فى الإصلاح بوصول آل بيت النبى إلى سدة الخلافة ، فهم أجدر الناس بأن يملأوا الأرض عدلا كما ملئت جورا ، ومن ثم كان عليهم أن يرتبطوا ببعض أفراد هذا البيت ارتباط مستقبل ومصير ، رغبة فى تحسين أوضاعهم الاجتماعية ، ومكانتهم السياسية فى المجتمع الاسلامى .

٣ ــ يضاف الى ذلك أن استمرار نزول المحن والمصائب بالبيت العلوى طوال عهد بنى أمية ــ وهم آل النبى ﷺ ــ كان من الطبيعى أن يزيد فى انعطاف قلوب الناس نحوهم ، وبخاصة الموالى ... فهذا الموكب الحزين لشهداء هذا البيت والذى ضم قبيل

---

(١) د. احمد محمود صبحى : نظرية الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية ص ٣٥٥ ، ٣٥٦

قيام الدولة العباسية : عَلِيًّا والحسن والحسين ، وزيد بن على بن الحسين ، ويحيى بن زيد كان من شأنه أن يشعل فى القلوب نارا من الأحقاد ماتزال تضطرم حتى تلسع بلهيبها وجه بنى أمية ، وتعصف بدولتهم ، فتقتلعها من الجذور فى النهاية ، وقد بدأت هذه المحن تنزل بهذا البيت فى عهد معاوية ، وظلت آثارها تقوى وتزداد (وضوحا طوال عهد بنى أمية حتى بلغت نهاية قوتها فى أواخر هذا العهد ، وأدى ذلك الى حدوث الانقلاب العباسى الذى أسقط تلك الدولة العاتية ، وبدأ حقبة جديدة فى تاريخ الاسلام) (١)

وهذا كله ينقلنا إلى القضية الثانية : قضية شيعة العلويين والدعوة العباسية ، وهى قضية تثير العديد من التساؤلات التى تتطلب إجابات عليها ، وهذه الإجابات ضرورية لتفسير مسلك الموالى تجاه العباسيين بعد قيام دولتهم ، ومسلك العباسيين تجاه الموالى بعد قيام هذه الدولة ، فهل كان للعباسيين موالٍ يخصونهم بتأييدهم ، والدعوة لإقامة دولتهم من دون أبناء عمومتهم العلويين ؟ أم أن العباسيين استغلوا شيعة أبناء العمومة فى دعوتهم ؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل تم هذا الأمر بعلم ووعى من جمهور الموالى بحقيقة الدعوة والمدعو إليه ؟ أم أن العباسيين دلسوا على الموالى هذا الأمر ، وكتموا عنهم حقيقته تحت ستار هذا الشعار الغامض « الدعوة للرضا من آل محمد » هكذا دون تحديد ، وإذا كان جمهور الموالى أو قادتهم يدركون أبعاد حقيقة هذه الدعوة الجديدة ، وأنها لغير أبناء البيت العلوى الذى ارتبطوا به من قديم فلماذا منحوا العباسيين تأييدهم ونصرهم ؟ وهل كانوا جادين فعلا فى الوصول بالبيت العباسى إلى قمة السلطة مع مواصلة تأييدهم له ، والدفاع عنه ؟ أم أنها كانت خطوة مرحلية على طريق تمهيد الأمر للعلويين بعد ذلك ؟ كل هذه أسئلة تطرح نفسها ، والإجابة عليها أمر يقتضيه البحث ويستلزمه لتفسير حقيقة العلاقات التى ربطت بين الموالى والعلويين — فى هذه الفترة — من ناحية ، وبين الموالى والخلافة العباسية من ناحية أخرى

وفى سبيل الاجابة على هذه التساؤلات نذكّر أولا بما ذهب اليه جمهور المؤرخين من أن أبناء البيت العباسى لم يكن لهم أنصار ، ولاأعوان فى هذا الاتجاه لأنهم بداية لم يشغلوا أنفسهم بأمر الخلافة ، وأحقيتهم بها ، وطريقة الوصول إليها ، فمنذ التساؤل الذى طرحه العباس عم النبى ﷺ على الإمام على رضى الله عنه عندما طلب منه أن

---

(١) النظريات السياسية ص ٥٧ ، ٥٨

يدخل على النبى الكريم وهو فى فراش الموت ليسأله إن كان هذا الأمر فيهم وإلا فليوص بهم ، ورفض الإمام على قائلا : والله لاأفعل ، لئن منعنا رسول الله هذا الحق ماأعطانا إياه أحد بعده [1] منذ هذا التساؤل لم يفكر العباس ولاأبناؤه من بعده فى هذا الأمر ، وخاصة بعد أن اعتزل عبد الله بن عباس الفتنة بين على ومعاوية ، ووقف أبناؤه من الدولة الأموية موقفا مسالما ، فأغدقوا عليهم العطايا والهبات .

ولكن هذا الموقف السلبى من قضية الخلافة بدأ يتغير تماما ، وهذا التغير لم يأت من خلال عوامل ذاتية عدلت من فكر أفراد البيت العباسى ، بل حدث بتأثير بعض العوامل الخارجة عن نطاق هذا البيت ، فاستغلوها لصالحهم ، ووجدناهم فجأة من بداية القرن الثانى الهجرى ينشطون فى أمر الخلافة ، على الرغم من أنه لم يكن لهم أنصار ولاأعوان فى هذا الاتجاه ، ولم يسبق لهم أن ادعوا أحقيتهم بهذا الأمر ، ولكن الذى حدث أن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية التى تكونت أول فرقة شيعية فى حياة أبيه ، واعتبرته الإمام بعد أخويه الحسن والحسين هذه الفرقة (الكيسانية) ساقت الإمامة بعد وفاته إلى ابته أبى هاشم ، وحدث أن كان أبو هاشم فى زيارة للشام ، ومرض فى الطريق ، فعرج على أبناء عمومته من العباسيين ليتمرض عندهم وكانوا يقيمون بقرية فى جنوبىّ الشام تسمى « الحميمة » [2] أقطعهم الخلفاء الأمويون إياها فحضرته الوفاة ، ولم يكن له عقب ، فكتب لأبناء العمومة كتابا تنازل فيه عن الإمامة إلى عميد بيتهم محمد ابن على بن عبد الله بن العباس ، وأطلعهم على أسرار الدعوة ، وأسماء قادتها ، وكبار دعاتها ، ورأى العباسيون أنهم حصلوا على سند شرعى يمكنهم من المضى فى هذا الاتجاه وكانت الظروف مواتية — إلى حد ما — كى ينشطوا فى هذا الأمر ، ذلك أن هذه الفترة التى بدأوا فيها نشاطهم فى الدعوة كانت فترة خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١) وهى فترة إعادة الحريات المفقودة لأفراد المجتمع المسلم ، وهى أيضا فترة التسامح ، ورد الاعتبار لكل أفراد البيت الهاشمى ، والعلويين بصفة خاصة ، فأعاد إليهم حقوقهم فى بيت مال المسلمين ، ومنع منعا باتا لعن الإمام علىّ على المنابر ، وهى سنة سيئة استنها معاوية بن أبى سفيان ، واستمرت فى فى عهد ابنه يزيد ، وفى عهد من خلفه من البيت المروانى بعد ذلك ، وأحل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه مكان اللعن

---

(١) الكامل جـ ٢ ص ٣٢١

(٢) الحميمة : بلد بأرض الشراة من أعمال عمّان فى أطراف الشام كانت منزل بنى العباس (معجم البلدان مجلد ٢ ص ٣٠٧)

﴿ إن الله يأمر بالعدل والاحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ، والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [(١)] .

واختيار عمر بن عبد العزيز لهذه الآية الكريمة يعكس لنا بوضوح رأيه فى هذا اللعن وموقفه منه ، فهو فاحشة وبغى وظلم ، وقطع لأواصر القربى والرحم ، كما أن إصلاح ذلك هو العدل والاحسان ، ورعاية لرحم رسول لله ﷺ . ولاشك فى أن ذلك كله يشير بوضوح إلى نوعية السلوك الذى اعتزم عمر أن يسلكه تجاه بنى هاشم .

فى هذا الجو بدا بنو هاشم جميعا يتنسمون نسيم الحرية ، وأخذ العباسيون يخططون بكل دقة للدعوة لإقامة دولتهم ، ولما لم يكن لهم أنصار ولاأعوان يؤمنون بأحقيتهم فى هذا الأمر لم يكن أمامهم إلا أن يعتمدوا على أنصار أبناء عمومتهم من العلويين مستغلين قضية تنازل أبى هاشم عن الإمامة لهم ، مع أن هذه الفرقة الشيعية التى كانت تدين بالولاء لأبى هاشم وهى الفرقة « الكيسانية » لم تكن الفرقة الشيعية الوحيدة فى الميدان السياسى حينئذ ، بل كان إلى جانبها فرقة الإمامية التى عرفت — فيما بعد — باسم « الاثنا عشرية » وكانت أكثر أعوانا وأنصارا فى محيط الموالى . وأمام هذه الظروف لم يستطع العباسيون أن يفصحوا عن حقيقة نواياهم لجماهير الموالى ، أو يطلعوهم على اسم الإمام وشخصه ، الذى تتحرك الدعوة من أجله ، فأعلنوا هذا الشعار الغامض « الرضا من آل محمد » هكذا دون تحديد ، ولايمكن لنا أن نتصور أن جميع من عملوا فى حقل الدعوة كانوا يجهلون حقيقة المدعو اليه ، بل إن الكثيرين من رجال الدعوة وقادتها كانوا يعرفون حقيقة الدعوة ، ويعرفون نسب الإمام ، ولكنهم لم يصرحوا بشىء من ذلك اطلاقا لجماهيرهم ، حتى يضمنوا استمرار ولائهم ، وتأييدهم لهذه الدعوة ، ولو فعلوا غير ذلك لانصرفت هذه الجموع عن الدعوة العباسية ، وأبقت على ولائها كما هو للبيت العلوى ، بل على العكس من ذلك وجدنا بعض دعاة العباسيين فى خراسان يستغلون موجة العطف التى لقيها يحيى بن زيد بن على بن الحسين من جماهيرهم عندما فر إلى خراسان بعد مصرع أبيه زيد فى الكوفة وأعلن فيها الثورة ضد الأمويين ... استغل بعض دعاة العباسيين التفاف الجماهير حول يحيى واندسوا بين صفوفهم ، وادعى بكير ابن ماهان أحد كبار دعاة البيت العباسى أنه داعية يحيى بن زيد فى خراسان [(٢)] وبعد

---

(١) سورة النحل الآية ٩٠

(٢) ناجى حسن : ثورة زيد بن على ص ١٥١

مقتل يحيى واختلاف كلمة بنى مروان انتشر دعاة العباسيين فى خراسان فكان أول مايظهرونه فضل (على بن ابى طالب وولده ، ومالحقهم من القتل والخوف والتشريد) [١] وقد استمد العباسيون السواد الذى اتخذوه شعارا لهم من أهل خرسان الذين سودوا ثيابهم حزنا على إستشهاد زيد بن على ، وابنه يحيى [٢] (ولما كانت المسودة هى التى نفذت الثورة العباسية فى خراسان بقيادة أبى مسلم ، وقضت على جيوش الدولة الأموية ، فتكون القوى الزيدية العلوية هى الأساس لارتكاز الثورة العباسية) [٣] لقد اندمج دعاة العباسيين فى صفوف الشيعة لأنهم وجدوا فيها الوسيلة الناجحة لاستهواء الجموع وبدا هذا واضحا فى مسلك بعض قادتها الذين حاولوا أن يسترضوا جماهير الشيعة فى خراسان ليضمنوا وقوفهم إلى جانبهم ، فعندما دخل قحطبة بن شبيب الطائى مدينة نيسابور ، وسيطر عليها سنة ١٣٠ هـ /٧٤٧ م أمن أهلها جميعا إلا من شهد منهم قتل يحيى بن زيد [٤]

واضح من ذلك كله أن العباسيين اتخذوا من ثورة زيد بن على وابنه يحيى منطلقا ومرتكزا لدعوتهم ، واستطاعوا بذكاء أن يضموا إلى دعوتهم أنصار الزيدية من الخراسانيين فتمكنوا من تحقيق النجاح لدعوتهم ، وقد عبر عن هذه الحقيقة أحد الشعراء ، وهو علـى بن محمد التنوخى (ت ٣٤٢ /٩٥٣) وهو يرد على عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦ /٩٠٩) حين افتخر ببنى العباس على بنى أبى طالب بقوله :

أبى الله إلا ماترون فما بالكم ... غضابا على الاقداريا آل طالب

فرد عليه التنوخى بقوله ؟ :

وقلتم نهضنا ثائرين شعارنا ... بثارات زيدا لخير عند التجارب
فهلا بإبراهيم كان شعاركم ... فترجع دعواكم تملة خائب [٥]

فالتنوخى هنا يشير إلى حقيقة هامة : وهى أن العباسيين أثناء دعوتهم قد رفعوا شعار الثأر لزيد بن على ، واستمروا فى رفع هذا الشعار حتى قامت دولتهم ، ولم يرفعوا — مثلا — شعار الثأر لإمام بيتهم إبراهيم الإمام عندما قتل فى سجن مروان بن محمد

---

(١) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ص ٢٦١
(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٤٠
(٣) ثورة زيد بن على ص ١٥٢
(٤) المرجع السابق ص ١٥٣
(٥) معجم الأدباء جـ ٥ ص ٣٤١ — ٣٤٢ نقلا عن ناجى حسن : ثورة زيد بن على ص ١٥٥

(آخر خلفاء بنى أمية) والسبب فى هذا واضح ، وهو انهم كانوا يعتمدون أساسا على الموالى من شيعة أبناء عمومتهم ، وقد أصبحوا يشكلون جند الحركة ، والأيدى العاملة فيها

وإذا كان من الثابت الآن أن جمهور الموالى كانوا يجهلون شخصية الإمام المدعو إليه وان كانوا يعتقدون أن شعار الرضا من آل محمد لايعنى غير صرف الإمامة إلى العلويين ، كما أن من الثابت أيضا أن معظم كبار الدعاة والقادة من الموالى كانوا يعلمون حقيقة نسب الإمام ، وحقيقة الدعوة ، ومع ذلك وقفوا وراءها بكل ثقلهم . إذا كان الأمر كذلك فهل كان هؤلاء الدعاة مخلصين فى الدعوة إلى أبناء البيت العباسى ، مؤمنين بأحقيتهم فى تولى هذا الأمر ؟ أم أن وقوفهم بجانب العباسيين كان خطوة فى سبيل الوصول إلى الهدف النهائى المتمثل فى إيصال الخلافة إلى العلويين ؟

إن تطورات الأحداث — بعد نجاح الدعوة — فى علاقة الدعاة بالخلافة العباسية يشير بوضوح إلى أن هؤلاء الدعاة لم يكونوا مؤمنين بأحقية هذا البيت فى تولى إمامة المسلمين ، وإن جدوا فى إنجاح الدعوة ، والوصول بها إلى غايتها ، ذلك أن هؤلاء الدعاة قد حكم نشاطهم فى هذا الاتجاه هدفان أحدهما عاجل والآخر آجل ، أما الهدف العاجل فهو القضاء على الدعوة الأموية التى كانت عربية الطابع والسمات ، ومن ثم تطلع هؤلاء الزعماء إلى القضاء السريع عليها رغبة فى تحسين أوضاع الموالى السياسية والاجتماعية فى داخل المجتمع المسلم . وفى سبيل تحقيق هذا الهدف العاجل كانوا على استعداد أن يتحالفوا مع أى قوة تسير فى هذا الاتجاه ، شريطة أن يتوفر لها القدر الكافى من أسباب النجاح . وقد وازنوا بين تحركات العباسين والعلويين للقضاء على هذه الدولة فرجحت كفة العباسيين ، ومن ثم ساروا وراء حركتهم ، ومنحوها التأييد والنصر ، مرجئين محاولة الوصول الى هدفهم الآجل — صرف الخلافة إلى العلويين — إلى حين

وقد رجحت كفة التحرك العباسى فى نظر قادة الموالى لأسباب عدة : فبعض هؤلاء القادة كانوا ينتسبون للفرقة الكيسانية الشيعية ، وقد وجدوا فى وصية إمامهم أبى هاشم بالتنازل عن الإمامة للعباسيين سندا شرعيا يبرر وقوفهم إلى جانب البيت العباسى ، أما الغالبية العظمى من الدعاة فقد رأت أن الوقوف بجانب العباسيين سيسرع فى إنجاز هدفهم العاجل ، لأن العباسيين بدأوا دعوتهم وهم أكثر تنظيما ، فاختاروا الوقت المناسب ، وجدوا فى إحاطة دعوتهم بالسرية التامة ، واختاروا لها الأماكن المناسبة التى يمكن أن تجد فيها استجابة سريعة وفعالة كما استقطبوا لها القادة

الأكفاء ، وكانوا أذكياء فى اختيار هذا الشعار الفضفاض (الرضا من آل محمد) الذى جذب نحوهم الأنصار والأعوان من شيعة أبناء العمومة . كما رأى هؤلاء الدعاة أيضا أن السير فى ركاب العلويين فى هذه الفترة يعد مغامرة غير مأمونة العواقب لأن أعين السلطة مصوبة نحو زعماء هذا البيت ترصد حركاتهم وسكناتهم ، وتتعقبهم فى كل أتجاه حيثما ساروا ، وأينما حلوا ، ومن ثم فإن كل حركات العلويين الثورية التى ظهرت فى أثناء فترة الدعوة العباسية قد قضى عليها وانتهت بالفشل ، وذلك كثورة زيد بن على ابن الحسين ، وثورة ابنه يحيى بن زيد فى خلافة هشام بن عبد الملك . أما العباسيون فقد ظلوا بعيدين عن أعين السلطة لم يتطرق الشك إليهم ، ولاالريبة فيهم ، واستمروا على هذا الحال ، فلم ينكشف لهم ستر إلا فى ساعة الصفر .

إذا كان واضحا الآن أن التأييد الذى منحه معظم الدعاة والأعوان من الموالى للدعوة العباسية كان تأييدا مرحليا إلى أن تحين الفرصة المناسبة لنقل الخلافة نهائيا إلى العلويين إذا كان الأمر كذلك فلنا أن نتوقع من معظم جند الموالى عدم الإخلاص لهذه الدولة بعد قيامها وهذا ماسيجعل خلفاء البت العباسى يتعاملون معهم بمنتهى الحذر والحيطة ، كما أن أبناء البيت العلوى تجرعوا كأس المرارة مترعا عندما أسقط فى أيديهم ، وأدركوا حقيقة هذه الدعوة التى كانوا يظنون أنها لهم ، وربما تتضح هذه المرارة وضوحا بينا فى مقالة محمد النفس الزكية الذى ثار على العباسيين مخاطبا المنصور : « إن هذا الحق حقنا ، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضله ، فإنا أبانا عليا كان الوصى وكان الامام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء » (١)

وبسبب ايمان العلويين بأنهم أصحاب الحق الشرعى ، وأن أبناء العمومة قد خدعوهم وسلبوا منهم حقهم ، واستغلوا مواليهم فى الدعوة لاقامة دولتهم ، بسبب ذلك كله فان العلويين لن يكفوا عن المطالبة بحقهم ، وسيخرجون ثائرين طوال العصر العباسى الأول تقريبا ، وسينالهم من المحن والشدائد على أيدى أبناء العمومة أضعاف مالاقوه على أيدى الأمويين .

ان موقف الموالى والعلويين من الدولة العباسية بعد قيامها ينقلنا الى القضية الثالثة وهى :

---

(١) الكامل ج ٥ ص ٥٣٦ ـ ٥٣٧

العباسيون فى مواجهة تطلعات العلويين وخطر الموالى

بعد أن سقطت الخلافة الأموية تحقق الهدف العاجل للموالى ، وكان عليهم بعد أن يناضلوا من أجل تحقيق هدفهم الآجل ، وهو صرف الأمر إلى العلويين ، وقد سلكوا إلى ذلك طرقا شتى ، فبعضهم اتجه إلى محاولة النقل الفورى للخلافة من العباسيين إلى العلويين والبعض الآخر لجأ إلى محاولة التغيير المتدرج المتأنى ، وقد تمثل الأول فى محاولة أبى سلمة الخلال نقل الخلافة إلى العلويين بعد نجاح الثورة فى خراسان ، والقبض على ابراهيم الإمام من جانب آخر خلفاء بنى امية : مروان بن محمد . لقد انتهز أبو سلمة فرصة وفاة إبراهيم الإمام فى سجن مروان وتحلله من بيعته ، وأراد أن يرد الأمر إلى أصحابه قبيل إعلان قيام الدولة العباسية ، وإظهار اسم الخليفة ، فحجر على أبناء البيت العباسى فور وصولهم إلى الكوفة ، ومنعهم من الاتصال بأنصارهم ، ثم كاتب جعفر الصادق ، وعبد الله بن الحسن ابن الحسن ، وعمر الأشرف بن على زيد العابدين ، عارضا الخلافة على من يقبلها منهم فلم يستجب لدعوته غير عبد الله بن الحسن ، ولكن لم يتم له الأمر (١) لأن تطورات الأحداث فى الكوفة حينئذ لم تسر على هوى أبى سلمة ، وتم الاتصال بين أبى عبد الله السفاح وكبار دعاته وتطورت الأمور على عجل حتى تمت بيعة أبى عبد الله السفاح بالخلافة ، وأعلن عن قيام دولة بنى العباس فى الكوفة . ولم ينس العباسيون هذا الموقف لأبى سلمة بعد أن استقرت لهم الأمور ، اذ عملوا على التخلص منه ، فاتصلوا بأبى مسلم الخراسانى ، وذكروا له خيانته ، فأرسل له بعض رجاله الذين قتلوه غيلة بعد انصرافه من قصر الخلافة (٢)

ومحاولة أبى سلمة هذه ليست بالأمر الهين ، فما كان للرجل أن يفكر فى صرف الخلافة عن العباسيين إلى العلويين بعد نجاح الثورة العباسية فى خراسان إلا وهو يعلم تماما أن تصرفه هذا سيلقى استجابة سريعة من جمهور الدعوة وجندها ، هؤلاء الذين انساقوا وراء شعار الرضا من آل محمد ولم يشكوا فى أن هذه الدعوة لآل بيت النبى ﷺ من العلويين ، ومن العجيب ان هذا الفهم لم يكن وقفا على أبى سلمة أو على غيره

---

(١) ابن طبا طبا : الفخرى ص ١٥٤

(٢) المرجع السابق ص ١٥٥

من قادة الدعوة بل كان مستقرا أيضا فى ذهن بعض ذوى الخبرة بنفسية الموالى مثل يزيد ابن هبيرة (أمير الأمويين على العراق) فعندما جاء نبأ مقتل مروان بن محمد ،وقد اشتد حصار جند العباسيين له فى مدينة واسط ، وكان بينهم عشرة آلاف من الخراسانيين ، أراد أن يحدث خلخلة فى صفوف هذا الجند ، وتفككا فى تماسكه ، وذلك بالكتابة إلى محمد النفس الزكية بالمدينة يعرض عليه معونته وتأييده إذا قبل الخلافة (١) وابن هبيرة هنا ليس رجلا علويا يمكن أن نفسر مسلكه هذا فى ضوء علويته وتشيعه ، وإنما أراد بهذا السلوك ضرب خطط العباسيين الذين يحاصرونه ، ولو أن محمدا قبل ماعرضه عليه ابن هبيرة لتحقق الهدف الذى سعى إليه من بث الفرقة والانقسام فى صفوف الجند الذى يحاصره ، لأن هوى جمهورهم مع العلويين ، وكان من الممكن أن تجد هذه الدعوة لبيعة محمد النفس الزكية المشهود له بالصلاح والتقوى استجابة سريعة لدى معظمهم ، ولكن تباطؤ محمد فى الرد عليه فوت عليه الغاية التى سعى لتحقيقها .

وإذا كان كبير الدعوة ووزيرها أبو سلمة قد سعى لصرف الخلافة إلى العلويين فى اللحظة الحاسمة ، فإنه لم يكن الوحيد فى هذا الاتجاه من بين كبار رجال الدعوة . فسليمان ابن كثير أحد شيوخها ، والذى أوصى ابراهيم الإمام أبا مسلم الخراسانى بأن يلزم طاعته ، ولايقطع أمرا دون مشورته (٢) هذا الداعية يخونه لسانه فينبىء عن خبيئة نفسه وعن هواه العلوى الكامن ، وذلك عندما زار المنصور خراسان فى عهد أخيه السفاح ، والتقى هناك بأبى مسلم وبسليمان بن كثير ، فسار سليمان خلف المنصور ، ومعه أحد العلويين يسايره ويدعى عبيد الله بن الحسن بن على زين العابدين (الملقب بالأعرج) فقال له سليمان : ياهذا إنا كنا نرجو أن يتم أمركم ، فإذا شئتم فادعونا إلى ماتريدون . فظن عبد الله أنه دسيس عليه من أبى مسلم ، فاتى أبا مسلم وأخبره ، فأحضر أبو مسلم سليمان بن كثير ، وقال له : أتحفظ قول الامام لى : من اتهمته فاقتله . قال : نعم ، قال فإنى قد اتهمتك ، قال أنشدك الله ، قال لاتناشدنى فأنت منطو على غش إمامك ، وأمر بضرب عنقه (٣) فأبو سلمة الخلال لم يكن وحده إذن ، وإنما شاركه أحلامه ومشاعره شيخ الدعوة وكبيرها : سليمان بن كثير .

---

(١) الكامل جـ ٥ ص ٤٤٠ — ٤٤١
(٢) الكامل جـ ٥ ص ٣٤٨
(٣) المرجع السابق ص ٤٣٦ — ٤٣٧ والعبر جـ ٤ ص ١٠

وإذا كان هذا هو موقف أبى سلمة وسليمان بن كثير من الدعوة والدولة وقد صرفا الجزء الأكبر من نشاطهما وجهدهما فى سبيل قيامها حتى استوت على سوقها فبدا لهما بعد ذلك موقف آخر منها ، إذا كان الأمر كذلك فان لأبى مسلم الخراسانى من هذه الدولة شأنا آخر فالمشهور عند جمهور المؤرخين أن سبب نكبة أبى مسلم هو تزايد نفوذه فى خراسان ، وإدلاله الدائم على هذه الدولة بما أسهم به من عظيم الجهد فى سبيل قيامها حتى بات يشكل خطرا على الدولة ، الأمر الذى دفع أبا جعفر المنصور إلى سرعة التخلص منه . هذا هو المشهور عند الجمهور ، وإن كان لدينا من النصوص مايؤكد تحول أبى مسلم بعواطفه عن هذه الدولة فى اتجاه آخر . وقد شكل هذا السبب الأساس فى نكبته ، أو كان — على الاقل — من بين الأسباب التى أدت إلى هذه النكبة . لنستمع إلى خطبة المنصور التى ألقاها عقب مقتل أبى مسلم « أيها الناس لاتخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولاتسروا غش الأئمة ، فإن من أسر غش إمامه أظهر الله سريرته فى فلتات لسانه ، وسقطات أفعاله ، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع لنا على أن من نكث بيعتنا فقد أباح لنا دمه ، ثم نكث بيعته هو فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه » (١)

واضح من نص المنصور أنه يتهم أبا مسلم بأنه غش إمامه ، وأن هذا الغش لم يكن صريحا وإنما انعكس وظهر فى فلتات لسانه ، وبعض أعماله ، وأن أبا مسلم نكث بيعته — هكذا يقول المنصور — رغم أن أبا مسلم حتى اللحظات الأخيرة كان حريصا — فى الظاهر على الأقل على ألا يشق عصا الطاعة ، فإذا كان أبو مسلم قد غش إمامه ، ونكث ببيعته فلمن حول النصح والبيعة ؟ ليس هناك إلا العلويون . ويؤكد ذلك ماأورده الشهرستانى — وهو يشير إلى طبيعة العلاقات بين أبى مسلم والعباسيين — فيذكر أن أبا مسلم لم يكن مخلصا فى ولائه لهم ، حيث انه أرسل إلى جعفر الصادق قبيل قيام الدولة العباسية يقول له : « إنى قد أظهرت الكلمة ، ودعوت الناس عن موالاة بنى أمية إلى موالاة أهل البيت ، فإن رغبت فيه (أى فى أمر الإمامة) فلا مزيد عليك » فكتب إليه الصادق — رضى الله عنه — ماأنت من رجالى ، ولا الزمان زمانى . فجاء أبو مسلم إلى أبى العباس ، وقلده أمر الخلافة (٢) كما أورد ابن الأثير

---

(١) المسعودى جـ ٣ ص ٣٠٥

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١٥٤

وغيره نصا خطيرا على لسان أبى مسلم يؤكد وجهة نظر المنصور فيه . يقول أبو مسلم مخاطبا المنصور : أما بعد فإنى اتخذت رجلا إماما ودليلا على ما افترضه الله على خلقه ، وكان فى محلة العلم نازلا ، وفى قرابته من رسول الله ﷺ قريبا ، فاستجهلنى بالقرآن فحرفه عن مواضعه ، طمعا فى قليل قد نعاه الله إلى خلقه ، فكان كالذى دلى بغرور ، وأمرنى أنْ أجرد السيف ، وأرفع الرحمة ، ولاأقيل العثرة ، ففعلت توطيدا لسلطانكم ، حتى عرفكم الله من جهلكم ، ثم استنقذنى الله بالتوبة ، فان يعف عنى فقدما عرف به ونسب إليه . وإن يعاقبنى فبما قدمت يداى ، وما الله بظلام للعبيد [١]

فأبو مسلم فى مقولته هذه نادم أشد الندم على مشواره الطويل فى خدمة العباسيين ، لأنه كان مخدوعا ، حيث استغل الامام العباسى (ويعنى به ابراهيم الامام) جهله بالقرآن ففسره له على هواه ، ليصيب بذلك غرضا دنيويا زائلا ، فكان كالشيطان الذى أغوى آدم وحواء ، وخدعهما بمعسول القول حتى أخرجهما من الجنة . ثم يعرّض أبو مسلم بمسلك إمامه الذى حمله على سفك الدماء ، وقتل الأبرياء ، والتجرد من الرحمة ، كى يحقق عرضه الدنيوى ، مستغلا فى ذلك كله قرابته من رسول الله ﷺ ، واحترام أبى مسلم لهذه القرابة ، وجهله يومها بأمور الدين . أما وقد تكشفت أمامه كل الحقائق فلم يعد يملك غير التوبة ، وتسليم الأمر كله لله .

والذى لاشك فيه أن هذا النص الخطير يعكس لنا رأى أبى مسلم الحقيقى فى العباسيين ، وربما ينبىء أيضا عن ولائه الأصيل للعلويين ، ولكنه فى النهاية يؤكد رأى المنصور فيه من أنه نكث البيعة ، وخان العهد

واذا كانت محاولات أبى سلمة الخلال ، وسليمان بن كثير ، وأبى مسلم الخراسانى قد تمت على مستوى كبار قادة الدعوة العباسية ، فإن هناك محاولات أخرى قد تمت على يد من هم أقل شأنا من هؤلاء من قادة الموالى ، ومن جمهورهم ، ذلك أن الجمهور الذى خدع فى هذه الدعوة قد إنتهز فرصة قيام أول ثورة علوية ضد العباسيين وهى ثورة محمد النفس الزكية وكان له موقف مؤيد لها ، فقد حاول أحد قادة الجيش العباسى ومعه ألف جندى من الموالى الانضمام إلى هذا الثائر العلوى ، ولكن أمره انكشف ففر هاربا الى معسكر النفس الزكية أما جنده فقد قبض عليهم ، وتم قتلهم [٢] ولاشك أن هذه

---

(١) الكامل جـ ٥ ص ٤٧٠ — ٤٧١

(٢) الكامل جـ ٥ ص ٢١٨ ، وانظر أيضا . حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، جـ ٢ ص ١٣٦

الحادثة تشير إلى مدى تغلغل النفوذ الشيعى بين جند العباسيين من الموالى ، كذلك فإن جمهور الموالى فى خراسان قد وقفوا متحفزين متأهبين لنصرة محمد بن عبد الله حتى أن والى خراسان كتب إلى المنصور أثناء اندلاع الثورة يقول : إن أهل خراسان قد تعاشوا عنى ، وطال عليهم أمر محمد بن عبد الله ، فأمر المنصور بقتل محمد بن عبد الله بن عمرو العثمانى ، وإرسال رأسه إلى خراسان ليطاف بها هناك ومعها من يقسم للناس على أنها رأس محمد بن عبد الله ، وأن أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ (١) وسلوك المنصور هذا يشير بوضوح إلى خوفه الشديد من انتقاض الأمور عليه فى خراسان أثناء اشتعال ثورة النفس الزكية ، ومن أجل ذلك ركب الصعب من الأمور فضحى بمحمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وأرسل رأسه الى خراسان مدعيا أنها رأس محمد بن عبد الله ، وأن أمه فاطمة بنت رسول الله تمويها على الخراسانيين ، وخداعا لهم ، لأنه يشبه محمد بن عبد الله (الثائر) فى الاسم ، وكلاهما حفيد للسيدة فاطمة رضى الله عنها ، فقد كان محمد بن عبد الله العثمانى أخا لعبد الله بن الحسن (والد النفس الزكية) لأمه فاطمة بنت الحسين بن على ، وان انتسب من ناحية الأب الى البيت الأموى . وكان هدف المنصور من هذا السلوك البشع أن يقعد المتحفزين للثورة ، ويدفعهم إلى الخلود والسكون عندما يعلمون أن ثائرهم (النفس الزكية) قد قتل وانتهى أمره .

ونعجب من فعل المنصور هذا .. أمن أجل أن يكون قسم المقسم صحيحا يقدم على قتل نفس حرم الله قتلها إلا بالحق ، وهل كان يرى المنصور أن جريمة القتل أقل بشاعة من جريمة الكذب فحرص على أن يكون فى الظاهر صادقا ، ولم يكن يعنيه أن يكون فى حقيقة الأمر قاتلا ؟ .

وإذا كان هذا هو موقف المنصور من المتحفزين للاشتراك فى الثورة العلوية من أهل خراسان فان موقفه من أهل الكوفة (شيعة على وولده) كما وصفها إبراهيم الامام لم تكن أقل حذرا فبمجرد اندلاع الثورة ضرب على المدينة حصارا قاسيا ، فلم يسمح لأحد بالخروج منها أو الدخول إليها ، حتى يحول بين أهلها وتقديم أى عون عسكرى أو مادى لمحمد بن عبد الله (٢) هذه هى الكوفة التى قال أبو عبد الله السفاح فى أهلها فى أول خطبة له بعد قيام الدولة « يأهل الكوفة ؟ أنتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، وأنتم الذين لم

---

(١) الكامل جـ ٥ ص ٥٢٦

(٢) المرجع السابق ص ٤١٣

تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا » (١) لقد انتهى الأمر بأهل الكوفة إلى أن أصبح المنصور لايأمنهم على نفسه ، وكان يتهمهم بأنهم قد أفسدوا عليه جنده ، وكره جوارهم ، وكان هذا من الأسباب التى دفعته الى البحث عن مكان جديد بعيدا عن الكوفة ينشىء عليه عاصمة جديدة لدولته . بل لفد تغلغل النفوذ الشيعى بين عسكر المنصور الى درجة كبيرة ، وسأل كثير منهم ابراهيم بن عبد الله (أخا محمد النفس الزكية) أن يقدم عليهم فينضموا له ، ويثبوا بالمنصور ، فجاء إلى بغداد والمنصور يقوم بتخطيطها فانكشف أمره ، فاختبا عند رجل من شيعته ، وما لبث هؤلاء الشيعة من الموالى أن بذلوا أقصى جهدهم لانقاذه من براثن المنصور حتى تم لهم ذلك (٢)

ooooooooooooo

وإذا كانت معظم المحاولات السابقة من جانب الموالى قد لجأت إلى محاولة التغيير الفورى أو الثورى سالكة طرقا شتى فى هذا الاتجاه ، فإن محاولات أخرى من جانب الموالى قد استهدفت التمكين للعلويين فى دولة العباسيين ، حتى يتحقق لهم على المدى البعيد الهدف الذى يسعون إلى تحقيقه ، وقد اتضح هذا فى موقف يعقوب بن داود بن طهمان (وزير المهدى) وقد كان شيعيا زيديا ، واشترك فى ثورة إبراهيم بن عبد الله بالبصرة ، وقبض عليه بعد القضاء على هذه الثورة وأودع فى سجن المنصور حتى أطلقه المهدى ، وتقرب منه ، فعينه وزيرا له ، وقد استغل منصبه هذا فى محاولة التمكين للعلويين « فأرسل إلى الزيدية فجمعهم وولاهم أمور الخلافة فى المشرق والمغرب » ولذلك سعى به خصومه عند المهدى ، وقالوا : إن الشرق والغرب فى يد يعقوب وأصحابه ، وإنما يكفيه أن يكتب لهم فيثوروا فى يوم واحد فيأخذوا الدنيا (٣)

ولقد كانت علوية يعقوب سببا فى نكبته عندما أراد المهدى التحقق من صدق مانسب إليه ، فاختبر ولاءه وإخلاصه بأن سلم إليه أحد العلويين ليريحه منه ، ووهبه جارية حسناء تكون عينا عليه ، فلما جىء بالعلوى فى مجلسه قال له : ويحك

---

(١) المرجع السابق ص ٥٣٤ .

(٢) الكامل جـ ٥ ص ٥٥٧ — ٥٦٢

(٣) المسعودى جـ ٣ ص ٣٢٢ والكامل ص ٦٩ — ٧٠

يايعقوب : تلقى الله بدمى وأنا رجل من ولد فاطمة بنت محمد ﷺ ، قال لا والله هل فيك أنت خير ؟ قال إن فعلت خيرا شكرت لك ، ولك عندى دعاء واستغفار ، فقال له : أى الطرق أحب إليك ، قال كذا وكذا فأرسل إلى من يثق به فأخذه ، وأعطاه مالا ، فأرسلت الجارية الى المهدى فأعلمته الحال ، فأرسل الى الطريق فأخذ العلوى وصاحبه والمال ، ثم أرسل فى طلب وزيره ، وقال له : الآن حل لى دمك ، ولكنه أمر بحبسه ، فظل فى السجن حتى فقد بصره ، وأفرج عنه فى عهد الرشيد (١) ومن خلال ماتقدم يتبين لنا إلى أى مدى تمكن هوى العلويين من نفوس الموالى ، وفى سبيل ذلك تحمل بعضهم الكثير من التضحيات الجسام .

وإذا كان البعض الآخر من الموالى قد سلم بالأمر الواقع ، ولم يبذل جهدا فى سبيل رد الأمر الى أصحابه الشرعيين — حسب مايعتقدون — فإن أحدهم لم يستطع أن يفارق الدنيا قبل مخاطبة الخليفة العباسى ، وتذكيره بهذه الحقيقة ، حتى يخلى مسئوليته ، ويلقى الله وقد أدى واجب النصح للخليفة العباسى ، فهذا هو القاسم بن مجاشع المروزى (٢) عندما حضرته الوفاة كتب وصيته وأمر بإيداعها لدى الخليفة المهدى ليقوم بتنفيذها وعندما فتحها المهدى وجد فيها « شهد الله أنه لا اله إلا هو والملائكة وأولوا العلم » والقاسم يشهد بذلك ، ويشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، وأن على بن أبى طالب رضى الله عنه وارث الإمامة من بعده ، فلما بلغ المهدى إلى هذا الموضع رمى بها ، ولم ينظر فيها (٣)

لقد حرص هذا الرجل وهو مقبل على الآخرة أن يضع أمام الخليفة ما يعتقد أنه الحق حتى يبرىء ذمته ، فلم يكن من المهدى إلا أن رمى بالوصية ولم ينظر فيها حتى النهاية ، الأمر الذى يشير بوضوح إلى أن هؤلاء المتشيعين كانوا ينغصون على الخلفاء العباسيين حياتهم

---

(١) المرجع السابق ص ٧١ — ٧٢

(٢) وصف ابن الأثير هذا الرجل بأنه تميمى مروزى وفى النسبة الأولى إشارة إلى أنه قد يكون عربيا لكننا نرجح أنه قد يكون تميميا بالولاء لا بالنسب ، نظرا لتشيعه وموطنه الفارسى

(٣) الكامل جـ ٦ ص ٨٥

وشهد عهد الهادى — وهو العهد القصير الأمد — ثورة كبرى قادها زعماء البيت العلوى فى المدينة ، ترجع فى بعض أسبابها المباشرة إلى سوء معاملة والى المدينة لهم فاستولوا على المدينة ، وتحركوا بعد ذلك إلى مكة فى أواخر ذى القعدة من عام ١٦٩ هـ/٧٨٥م والتقوا بجيوش العباسيين فى معركة كبرى تعرف بموقعة « فخ » وانتصر فيها العباسيون ، وقتل قائد الثورة الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على ، وتمكن اثنان من الفرار : أحدهما يحيى بن عبد الله بن الحسن ، والآخر أخوه ادريس بن عبد الله بن الحسن ، وكلاهما أخ لمحمد النفس الزكية (١) ويهمنا فى هذه الحادثة أمران : **أولهما** : أن أحد قواد العباسيين من الموالى واسمه مبارك التركى قدم حاجا على رأس مجموعة من جند الخلافة ، وكان عليه أن يشترك فى إخماد ثورة العلويين ، ولكنه لم يفعل ، وأرسل إلى الحسين زعيم الثائرين يقول له « والله لأن أسقط من السماء فتتخطفنى الطير أيسر علىّ من أن تشوكك شوكة ، أو أقطع من رأسك شعرة ، لكن لابد من الاعذار فتبيتنى (أى يهاجمه ليلا على حين غره) فإننى منهزم عنك » فتوجه إليه الحسن فى نفر من أصحابه ، فلما دنوا من معسكره صاحوا وكبروا ، ففر هو وأصحابه (٢)

الأمر الثانى : أن إدريس بن عبد الله استطاع بعد فراره من هذه المعركة أن يصل إلى مصر ، وهناك وجد من يوفر له الحماية والأمن من الموالى وهو (واضح) مولى صالح بن أبى جعفر المنصور ، وكان على بريد مصر — وهو منصب أشبه مايكون برئيس الاستخبارات فى عصرنا الحاضر — واستطاع هذا المولى أن يوصل إدريس إلى مأمنه فى المغرب الأقصى ، فالتف حوله جموع من البربر وتمكن من أن يقيم أول دولة علوية انفصل بها انفصالا تاما عن جسم الخلافة العباسية (٣)

وهذه العلاقة الحميمة التى ربطت بين العلويين والموالى والتى ترتب عليها أمور خطيرة فى أكثر من مناسبة ، وتورط فيها بعض كبار المسئولين فى الخلافة العباسية من الوزراء وكبار القواد ، وبعض موظفى الدولة ، هذه العلاقة جعلت هارون الرشيد لايرغب فى أن يساكنه أحد من العلويين فى بغداد ، فأمر بإخراجهم منها إلى المدينة فى عام ١٧١ /٧٨٧ ، حتى لايفسدوا عليه الأنصار والأعوان بعد أن بات واضحا لديه من

---

(١) الكامل جـ ٦ ص ٩٠ — ٩٤

(٢) المرجع السابق ص ٩١

(٣) المرجع السابق ص ٩٣

خلال التجارب الماضية أن هوى معظمهم مع العلويين [١] لكن مبالغة الرشيد فى أخذ الحذر والاحتياط تجاه العلويين لم يكن لها أن توقف الصراع بين البيتين العلوى والعباسى ، أو تمنع الموالى من أن يقفوا موقف التأييد والمؤازرة لثوار العلويين . وسرعان ماأطل الخطر يهدد دولته من المشرق عندما ظهر بها ثائر جديد هو يحيى بن عبد الله الذى سبق له الفرار إلى خراسان بعد معركة « فخ » وظل يجمع حوله الأنصار والأعوان من الموالى حتى اشتد ساعده ، وأنس من نفسه قوة فأعلن الثورة على العباسيين فى عام ١٧٦ /٧٩٢ . ويذكر ابن الأثير أن يحيى اشتدت شوكته ، وكثرت جموعه ، وأتاه الناس من الأمصار ، فاغتم لذلك الرشيد [٢]

ومما يشير إلى حجم هذه الثورة وخطورتها أن الرشيد جهز لإخمادها خمسين ألفا من جنوده ، ووضع على رأسهم خيرة قواده ، وهو الفضل بن يحيى البرمكى ، وسار الفضل لقتال يحيى ، ولكن من الغريب أنه لم يحدث قتال بين الجانبين ، واستطاع الفضل بأساليبه الخاصة أن يقنع يحيى بالاستسلام . ووجه الغرابة هنا أنه لأول مرة يثور علوى ولايمضى فى ثورته حتى النهاية ، ويقتنع بالاستسلام بعد أن أخذ له الفضل أمانا من الرشيد بخطه ، وشهد عليه فيه : القضاة ، والفقهاء ، ومشايخ بنى هاشم [٣]

لقد حدث ذلك لأمرين : الأول : أن الفضل بن يحيى وهو من سادة الموالى لم يكن راغبا فى قتال يحيى بن عبد الله العلوى ، فما زال يلاطفه ، ويبسط له الآمال حتى استسلم ، وقبل الرجوع عن الثورة . والأمر الثانى : أن يحيى كانت ثقته بالفضل البرمكى كبيرة ، فهو يعلم أنه مولى ، أى أن هواه مع العلويين فلن يغشه أو يخدعه ، ومن ثم قبل العدول عن الثورة . ولم يكن إسهام الفضل فى إنقاذ يحيى هو الاسهام الوحيد لأسرة البرامكة فى مساعدة العلويين ، والوقوف الى جانبهم ، بل ان جعفر البرمكى أخا الفضل حسب ماتقول بعض الروايات قد مكن يحيى بن عبد الله من الهرب بعد أن دفعه الرشيد إليه ليتحفظ عليه وكان هذا التصرف من بين الأسباب التى جعلت الرشيد يقول عن جعفر : قتلنى الله إن لم أقتله [٤] وقد نفذ الرشيد وعيده بالفعل فى جعفر عندما نكب البرامكة .

---

(١) المرجع السابق ص ١١٤

(٢) الكامل جـ ٦ ص ١٢٢ — ١٢٥

(٣) الفخرى ص ١٩٤

(٤) الكامل جـ ٦ ص ١٧٥ ، ١٧٦

وإذا كانت حادثة يحيى بن عبد الله تمثل حلقة فى سلسلة الحرب الساخنة بين العلويين والعباسيين حول أحقية أيهما بولاية أمور المسلمين ، فان الحرب الباردة بين الفريقين لم تهدأ حول هذا الموضوع ، وكان زعماء البيت العلوى لايتركون فرصة يمكن أن يؤكدوا فيها على أحقيتهم بهذا الأمر دون ان يهتبلوها ، فقد خرج الرشيد معتمرا فى عام ١٧٩ /٧٩٥ ثم زار مسجد النبى ﷺ ، ووقف على قبر الرسول الكريم ، وقال : السلام عليك يارسول الله يابن عم ، وكان موسى الكاظم (الإمام السابع للشيعة) موجودا فقال : السلام عليك ياأبت ، فتغير وجه الرشيد ، وعنفه ، وأخذه معه أسيرا إلى العراق فحبس فى بغداد فى بيت واحد من الموالى يدعى : السندى بن شاهك ، وكانت له أخت تتولى مراقبته عند غياب أخيها ، فكانت ترى اجتهاده فى العبادة ليلا ونهارا ، فلم يسعها إلا أن تقول كلما رأته : « خاب قوم تعرضوا لهذا الرجل الصالح » وقد ظل موسى حبيسا فى سجن الرشيد حتى توفى ببغداد سنة ١٨٣ /٧٩٩ (١)

وهذه الحادثة تحمل دلالات متعددة **أولها** : أن الرشيد عندما قال : السلام عليك يابن عم لم يكن يقصد الفخر كما فهم ابن الأثير بقدر ماكان يقصد تأكيد حقه ، وحق أسرته الدينى فى حكم المسلمين ، بسبب قرابتهم من النبى ﷺ . **ثانيها** : عندما قال موسى الكاظم : السلام عليك ياأبت كان يقصد فى الدرجة الأولى دفع هذا الحق عن العباسيين ، ويبين للحاضرين أن المسألة إذا كانت مسألة قرابة ورحم من رسول الله ﷺ فإن هناك من قرابته القريبة من هم أولى بوراثة النبى الكريم فى حكم الأمة ، وهم أبناء ابنته . ولقد فهم الرشيد هذا المعنى واضحا من مقالة موسى الكاظم حيث عكست هذه المقالة ما يحمله موسى فى داخله من مشاعر ونوايا تجاه بنى العباس ، وخاصة أنه كان معتقلا فى بغداد فى عهد المهدى خوفا من نشاطه السياسى ، ولكن المهدى أخلى سبيله بعد أن تعهد له بألا يحدث ضده أمرا (٢)

وثالثها : أن الذى كان يتولى اعتقال موسى رجل من الموالى ، ولابد أنه كان من خلصاء الرشيد وأصفيائه ، ومع ذلك وجدنا مشاعر أخته مع العلويين ، فبالرغم من حرصها على أداء الواجب الذى أسند إليها فإن هذا لم يمنعها من أن تدعو على سجانيه بالخيبة والخذلان .

---

(١) الكامل جـ ٦ ص ١٦٤ . ويذكر ابن طباطبا : انه مات فى سجن الرشيد ، وأظهر أنه مات حتف أنفه (الفخرى ص ١٩٦)

(٢) الكامل جـ ٦ ص ٨٥

وكانت فترة الصراع بين الأمين والمأمون مناسبة استغلها كل من العلويين والموالى لتحقيق هدفهم الذى جاهدوا من أجله طويلا ، محاولين الاستفادة من كل الظروف المتاحة وفى مقدمتها حالة الفوضى والاضطراب التى مرت بها الخلافة العباسية أثناء الصراع بين الأخوين ، وبعد انتهائه بمقتل الأمين ، وإن لوحظ اختلاف أسلوب الموالى عن أسلوب العلويين : فبينما لجأ الموالى إلى التخطيط الهادىء المنظم الدقيق للوصول إلى هذه الغاية نجد العلويين قد لجأوا إلى الأسلوب الثورى الذى افتقر فى معظم الأحيان إلى التخطيط والتنسيق بين ثوراتهم التى اندلعت فى أكثر من جهة ، ذلك أن ثورات العلويين بدءا من عام ١٩٩ هـ /٨١٤ م قد انتشرت فى أماكن شتى ، واستطاع داعيتهم أبو السرايا الشيبانى أن يستولى على الكوفة باسم الإمام الذى بايعه وهو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن على المعروف بابن طَباطَبا ، ثم أرسل الولاة من قبله إلى بعض أقاليم الدولة ، وبخاصة إقليم البصرة والأهواز وإقليم اليمن ، فسيطر العلويون على هذه الجهات ، واستطاع أبو السرايا أن يوقع بجيوش العباسيين هزائم متعددة حتى قتل فى عام ٢٠٠ هـ /٨١٥ وسقطت معظم الأقاليم التى استولى عليها فى يد جيوش العباسيين (١) وهنا سارع العلويون فى مكة إلى بيعة واحد منهم مشهود له بالصلاح والتقوى — على الرغم منه — وهو محمد بن جعفر وذلك فى ربيع الأول سنة ٢٠٠ ، واستمروا فى مكة حتى قدم عليهم جيش العباسيين يقوده هرثمه ابن أعْين ، فحاصر المدينة ، وهزم العلويين فيها ، فأرسل محمد بن جعفر يطلب الأمان فأمنوه ، ودخل جيش العباسيين مكة بعد شهرين تقريبا من بيعة محمد بن جعفر الذى أعلن خلع نفسه من الخلافة بعد أن أحل الناس من بيعته ، وقد ضمن له أحد كبار قادة الجيش العباسى من الموالى — وهو ابن عمة الفضل بن سهل — ويدعى رجاء بن جميل ، ضمن له الوفاء بالأمان عند المأمون ، فأرسل مكرما إليه فى مرو (٢)

وقد يبدو غريبا أن يتولى مسئولية قمع حركات العلويين هذه قائدان من الموالى ، أولهما : الحسن بن سهل وهو شقيق الفضل بن سهل (وزير المأمون) والثانى وهو هرثمة ابن أعين مع ماسبق أن أكدنا عليه دائما من أن هوى هؤلاء الناس كان مع العلويين فى معظم الأحيان ، ولكن ماحدث لاينفى هذه الميول بقدر مايؤكدها ، ذلك أن هذه

---

(١) مروج الذهب جـ ٤ ص ٢٦ — ٢٧ والكامل جـ ٦ ص ٣٠٤ — ٣٠٩

(٢) الكامل جـ ٦ ص ٣١١ — ٣١٣

الحركات العلوية التى ظهرت فى أماكن شتى من الدولة العباسية كانت حركات هوجاء لم يخطط لها التخطيط الدقيق ، ولم يكن الذين قاموا بها — فى الأعم الأغلب — على المستوى المطلوب حنكة وخلقا وتدينا ، ومن ثم فإن هذه الحركات كان محكوما عليها بالفشل سلفا ، ولم يكن من المعقول أن يتورط الموالى فى منحها التأييد والنصر ، وهم يعملون مصيرها المحتوم .

وفى الوقت الذى كان يتصرف فيه جمهور العلويين بدون تخطيط أو تنسيق بين حركاتهم التى انتشرت هنا وهناك كان الموالى يخططون لماهو أكبر وفى إطار من الشرعية والتنظيم الدقيق ، والعمل المتأنى الهادىء ، مستغلين كل الظروف المتاحة أحسن استغلال لتحقيق هدفهم المنشود ، فبينما كانت جيوش العباسيين بقيادة بعض الموالى تقمع بشدة حركات العلويين فى مكة سنة ٢٠٠ هـ إذ بنا فى العام ذاته نرى المأمون يرسل من مقره فى خراسان رجاء بن أبى الضحاك ، وياسر الخادم إلى المدينة المنورة لإحضار الإمام الثامن من أئمة الشيعة (الاثنا عشرية) وهو على بن موسى الكاظم الذى مات أبوه أو قتل فى سجن الرشيد ، فحمل إلى خراسان مكرما ، ونزل على المأمون فى مرو « فأنزله أحسن إنزال » وأمر المأمون بجمع خواصه ، وأخبرهم أنه لم يجد فى بنى العباس ولا فى بنى على أفضل ولا أحق بالأمر من على بن موسى ، ثم أعلن اختياره وليا لعهده ، وضرب اسمه بجوار اسمه على الدارهم والدنانير ، وزوجه بابنته ، ثم أمر بخلع السواد شعار العباسيين ، وأظهر بدلا من ذلك الخضرة فى اللباس والأعلام ، وهى شعار العلويين ، ثم جعل أخاه إبراهيم بن موسى بن جعفر أميرا على الحج فى هذا العام [١]

وفى ظنى أن ماحدث لم يكن وليد الساعة ، وإنما هو شىء خطط له الموالى من قديم ، وقد يرجع هذا التخطيط النشط إلى عهد الرشيد ، وهم الآن يجنون ثمار غرسهم . إذ تذهب بعض الروايات إلى أن أسرة بنى سهل قد أسلمت فى عهد الرشيد على يد يحيى البرمكى ، وأن يحيى قد اختار الفضل بن سهل ليتولى شئون المأمون وملازمته [٢] فعمل الموالى من خلاله على أن يكون المأمون وسيلتهم لتحقيق أهدافهم ، ولعل مما يؤكد ذلك أن الرشيد حينما فكر فى خروجه — الذى توفى فيه — لقتال رافع ابن الليث كان من رأيه أن يبقى المأمون بجانب أخيه الأمين فى بغداد حتى يعود الرشيد

(١) المسعودى جـ ٤ ص ٢٧ — ٢٨

(٢) الكامل جـ ٦ ص ١٩٧

من سفره ، ولكن الفضل بن سهل الذى كان يدرك أن الرشيد مريض ، وقد يوافيه الأجل فى هذه السفرة نصح المأمون بأن يلح على أبيه حتى يأذن له فى الخروج معه ، خوفا من أن يبقى بجانب الأمين فيتمكن الأخير بمساعدة عصبيته العربية ، ونفوذ أمه الهاشمية ، أن ينحى المأمون عن ولاية العهد ، فيقضى على أحلام الموالى فى استغلال المأمون لتحقيق أهدافهم (١)

ولقد بدأ الموالى تحركهم النشط لتنفيذ مخططهم فور وفاة الرشيد ، وقام هذا التخطيط أساسا على ضرورة الاحتفاظ بالمأمون فى خراسان حتى يتم نقل الخلافة نهائيا للعلويين ، ومن هنا وقف الموالى بكل ثقلهم وراء دعوة على الرضا إلى خراسان ، والبيعة له بولاية العهد . وهنا قد نتساءل لماذا على الرضا بالذات ؟ لأن عليا الرضا حسينى أى من نسل الحسين وليس من نسل الحسن ، وهو إمام الشيعة الإمامية التى يدين بالولاء لها معظم الفرس ، فهو ينحدر من سلالة بيت النبوة ، وبيت الملك الفارسى ، فلا بد اذن أن تكون هذه البيعة قد تمت بتأثير من العناصر الفارسية ذات النفوذ فى دولة المأمون ، وفى مقدمتهم وزيره الفضل بن سهل الذى كان حديث عهد بإسلام" وكان يتشيع وهو الذى أشار على المأمون بالعهد لعلى بن موسى " كما يقول ابن الأثير (٢)

ولم يخف على أمراء البيت العباسى أن البيعة لعلى الرضا بولاية العهد إنما تمت بتأثير من الفرس الذين تهوى أفئدتهم باتجاه العلويين ، ومن ثم رفض معظمهم البيعة لعلى الرضا ، بل لجأوا إلى خلع المأمون ، وتولية خليفة جديد من بينهم هو إبراهيم بن المهدى (عم المأمون) وسموه الخليفة السنى ، إيمانا منهم بأن المأمون صار خليفة رافضيا شيعيا (٣)

وسرعان ما أخذ الفرس يمكنون لعلى الرضا فى دولة المأمون ، فقد عين الحسن بن سهل نائب المأمون فى العراق العباسَ بن موسى (أخا على الرضا) أميرا على الكوفة

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٧ . ويشير ابن الأثير إلى أن الرشيد أثناء رحلته تلك كان يشعر بأن هناك من يتجسس عليه ، ليتعرف حقيقة أحواله من بين مرافقيه ، فقد كشف عن علة لبعض المقربين إليه ، وقال له : " هذه علة أكتمها ، ولكل واحد من ولدى على رقيب : فمسرور رقيب المأمون ، وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين ، ومامنهم أحد إلا وهو يحصى أنفاسى "

(٢) الكامل جـ ٦ ص ١٩٧ ، ويقول ابن طباطبا فى ذلك : " وكان الفضل بن سهل وزير المأمون هو القائم بهذا الأمر ، والمحسن له " (النخرى ص ٢١٧)

(٣) الكامل جـ ٦ ص ٣٤٦ — ٣٤٧

سنة ٢٠٢ هـ ، وفيها شيعة على وولده ، وأمره أن يدعو لأخيه بعد المأمون ، وأمده بمائة ألف درهم ، وقال له : قاتل عن أخيك فإن أهل الكوفة يجيبونك إلى ذلك ، وأنا معك [١] وقوله : قاتل عن أخيك عبارة لها دلالتها ، فلم يقل له مثلا قاتل عن خليفتك فى وقت بدأت فيه جيوش الخليفة الجديد إبراهيم بن المهدى تتوجه إلى الكوفة لإخراج العباس منها ، وفرض نفوذ الخليفة الجديد عليها .

نحن نرجح أن الموالى فى هذه الفترة كانوا يخططون لصرف الخلافة نهائيا إلى من يعتقدون أنهم الأولى بهذا الأمر ، ومن ثم فنحن لانستبعد أن يكون زعماء الموالى قد خططوا أيضا للتخلص من المأمون بعد وصول على الرضا ، وهناك من النصوص مايشير إلى تخوف المأمون من الفضل بن سهل والتعامل معه بحذر . ومن ذلك أن الفضل عندما نكب الجند الذين أخبروا المأمون بتطورات الأمور فى بغداد ، واختيار أهلها لابراهيم بن المهدى خليفة لهم ، وكان ذلك سببا فى اتخاذ المأمون قراره بمغادرة مرو ، والعودة إلى بغداد .. عندما حدث ذلك طلب على الرضا من المأمون أن يتدخل لرفع الأذى عنهم . فقال له : « أنا أدارى » ، ومعنى هذا أن المأمون لم يكن قادرا على مواجهة الفضل بن سهل وهو أسيره فى خراسان [٢]

وعلى الرغم من أن خضوع المأمون لرغبة قادة الموالى قد يفسر على نحو ما بأنه كان مغلوبا على أمره لكننا مع ذلك لانستطيع أن نتجاهل أثر التربية والنشأة فى شخصية المأمون ، فقد ولد من أمة فارسية تدعى « مراجل » لانشك فى أنها أرضعته مع لبنها حب العلويين والتعاطف معهم ، فإذا أضفنا إلى ذلك ماسبقت الإشارة إليه من ملازمة الفضل بن سهل له وكان يتشيع فمن الطبيعى أن تترك صحبته للمأمون منذ الصغر أثرها الواضح فى هذا الاتجاه . ورأينا هذا له مايؤيده من أقوال المؤرخين فالإمام السيوطى يقول عن المأمون : « وكان معروفا بالتشيع » ويقول عنه أيضا : « وجعل ولى عهده من بعده عليا الرضى ، حمله على ذلك إفراطه فى التشيع حتى قيل : إنه هَمَّ أن يخلع نفسه ويفوض الأمر اليه » [٣] ويقول ابن الأثير : « كان المأمون شديد الميل إلى العلويين ، والإحسان إليهم ، وكان يفعل ذلك طبعا لاتكلفا » ويؤكد ابن الأثير هذه المقولة بما

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤٢ — ٣٤٣

(٢) الكامل جـ ٦ ص ٣٤٧

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء : تحقيق أبو الفضل إبراهيم ص ٤٩٠ — ٤٩١

حدث من المأمون عندما توفى يحيى بن الحسين بن زيد العلوى ، فحضر الصلاة عليه بنفسه ، ورأى الناس عليه من الحزن والكآبة ماتعجبوا منه ، ثم إن ولدا لزينب بنت سليمان بن على وهى ابنة عم المنصور توفى بعده ، فأرسل له المأمون كفنا ، وأناب أخاه صالحا فى الصلاة عليه وتعزية أمه ، فأتاها وعزاها عن نفسه وعن أخيه ، واعتذر عن تخلف المأمون عن الصلاة عليه ، فظهر عليها الغضب ، وقالت لابن ابنها تقدم فصل على أبيك ، وتمثلت بقول الشاعر :

سبكناه ونحسبه لجينا   فأبدى الكير عن خبث الحديد

ثم قالت لصالح قل له : يابن مراجل : أما لو كان يحيى بن الحسين لوضعت ذيلك على فيك ، وعدوت خلف جنازته (١)

وفى قول زينب عن المأمون : يابن مراجل ماقد يشير إلى أنه شب وترعرع وهو علوى الهوى والنشأة باعتبار أنه أمه فارسية ، وقد يعنى إلى جانب ذلك تحقيرا له ، وتعييرا بأنه ابن أمة .

لكن هذا الاتجاه اللصيق بالعلويين من جانب المأمون قد يثير أمامنا العديد من القضايا التى تحتاج إلى مناقشة ، لأنها تشير إلى مسلك متناقض من جانب المأمون تجاه العلويين ، ويأتى فى مقدمة هذه القضايا ماأثير حول وفاة على الرضا المفاجىء وهو يرافق المأمون فى رحلة العودة من خراسان إلى العراق بعد أن تخلص المأمون من الفضل بن سهل بأن دس عليه من قتله فى شعبان سنة ٢٠٢ هـ /٨١٧ م ثم بعد ذلك بستة أشهر تقريبا يموت على الرضا مسموما بمدينة طوس ، ويشاع على المستوى الرسمى أن هذه الوفاة قد حدثت بسبب إفراطه فى أكل العنب ، بعد أن اتهم المأمون بالتآمر عليه ، ويستبعد ابن الأثير هذا المسلك على المأمون بقوله : « وهذا عندى بعيد » (٢)

ولكن إذا كان ابن الأثير قد استبعد أن يكون المأمون قد وضع السم لعلى الرضا فنحن ليس لدينا مايؤكد نفى الاتهام عنه ، بل لدينا مايرجحه ، وهو أن المأمون كاتب

---

(١) الكامل جـ ٦ ص ٤٣٨ — ٤٣٩

(٢) الكامل جـ ٦ ص ٣٥١ . ويؤكد ابن طباطبا أتهام المأمون بالتورط فى سم على الرضا بقوله : ثم دس إلى على الرضا عليه السلام سما فى العنب ، وكان يحب العنب فأكل منه واستكثر ، فمات من ساعته . (الفخرى ص ٢١٨)

أهل بيته فى بغداد يعلمهم موت على الرضا ، وأنهم إنما نقموا عليه بيعته بولاية العهد ، أما وقد مات فإنه يسأل الجميع الدخول فى الطاعة ففى هذا ماقد يشير إلى احتمال تورط المأمون فى التآمر عليه حتى يدخل بغداد متخففا من الأعباء التى أثقلت كاهله ، والتى دفعت أهل بيته ، وجماهير الناس فى بعداد إلى الخروج عليه ، والبيعة لخليفة جديد .

ولم يكن مقتل الفضل بن سهل وموت على الرضا هما الحادثان البارزان اللذان وقعا أثناء رحلة المأمون من مرو إلى بغداد ، بل وجدنا أيضا محمد بن جعفر عم على الرضا ، والذى سبقت بيعته خليفة فى الحجاز ، ولكنه استسلم ، وضمن له المقربون من آل سهل الوفاء بالأمان عند المأمون ، وسيق إليه فى خراسان ، وجدناه هو الآخر يموت فى هذه الرحلة عند مدينة جرجان ، ويصلى عليه المأمون . أليس من العجيب أن يأتى موت هؤلاء الثلاثة تباعا بطريق الصدفة ، وهم بصحبة المأمون ولكل منهم مشكلاته التى أثرت فى وضع المأمون السياسى تأثيرا واضحا . أليس من حقنا أن نشك فى أن محمد بن جعفر قد مات حتف أنفه ، وأنه ربما رؤى التخلص منه هو الآخر بسبب مكانته وعلمه وفضله ، وسابق بيعته بالإمامة فى إقليم الحجاز ؟ أوليس من الممكن أن يكون المأمون قد عاد إلى سياسة الآباء والأجداد من خلفاء بنى العباس تلك السياسة التى تلتزم بالهجوم على مصادر الخطر قبل أن يطل هذا الخطر برأسه من مكمنه . إن مما يرجح ذلك كله أن سياسة المأمون تجاه العلويين بدأت تتغير فى الاتجاه المضاد بعد دخوله بغداد سنة ٢٠٤ هـ /٨١٩ م ، فعندنا أراد أن يستعمل بعضا منهم استعمل على مكة والمدينة عبيد الله بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن على . وواضح أنه ليس من بنى الحسين ولامن بنى الحسن اللذين يدين لهم معظم الموالى بالولاء على اختلاف فى الدرجة . ويبدو أن المأمون آثر التدرج فى اتخاذ موقف معاكس من العلويين ، حتى لايفاجىء أنصاره وأعوانه من الفرس بالتحول الكامل عن العلويين ، أو بتغير سياسته تجاههم ، ومما يؤكد ذلك أنه سيستغنى تماما عن خدمات هذا العلوى بعد سنة ٢٠٦ /٨٢١ وسيسند ولاية الحجاز لأحد أبناء البيت العباسى (١)

---

(١) الكامل جـ ٦ ص ٣٥٨ ، ٣٨٦ ، ٤٠١ حيث ذكر ابن الأثير أن الذى حج فى سنة ٢٠٨ هـ بالناس صالح ابن الرشيد ، ولم يذكر من حج بالناس فى سنة ٢٠٧ ونحن نرجح أنه لم يكن عبيد الله بن الحسن بسبب تغير سياسة المأمون تجاه العلويين وكانت آخر حجة له بالناس سنة ٢٠٦ (الكامل جـ ٦ ص ٣٧٩) ويبدو أنه عزل عن ولاية مكة بعد هذا التاريخ اذ يذكر ابن الأثير فى موضع آخر أن الذى حج بالناس فى عام ٢٠٨ هـ هو صالح بن العباس بن محمد بن على والى مكة .

وقد تصاعدت حدة غضب المأمون على العلويين فى العام التالى مباشرة سنة ٢٠٧ هـ — ٨٢٢ م عندما أدى سوء سياسة عماله فى اليمن إلى قيام أهلها بثورة ضد الخلافة العباسية ، وبايعوا أحد العلويين واسمه عبد الرحمن بن أحمد بالخلافة ، فوجه إليه المأمون جيشا كثيفا ، وكتب له أمانا فاستسلم ، وسيق إلى المأمون فى بغداد ، فمنع المأمون عند ذلك العلويين من الدخول عليه ، وألزمهم بلبس السواد شعار العباسيين ، وخلع شعارهم الأخضر (١)

إن كل هذه المواقف فى رأينا لاتشير إلى تغير فى عقيدة المأمون الموالية للعلويين ، والمتعاطفة مع قضيتهم بحكم المربى والنشأة ، ولكن الرجل وجد نفسه مضطرا بعد البيعة لعلى الرضا ، وانتفاض أهل بيته وجمهور عظيم من رعيته عليه ... وجد نفسه مضطرا إلى الموازنة بين مصلحته السياسية وعاطفته الدينية . وكما هو شأن الحكام فى معظم الأحيان عندما يوضعون أمام هذا الاختبار الصعب فإنهم فى النهاية يرجحون المصلحة السياسية على العاطفة الدينية ، وهذا مافعله المأمون . ويؤكد هذه النظرة أنا وجدناه فى عام ٢١٢ هـ /٨٢٧ يؤكد هويته العلوية من جديد ، ويعلن فى الناس تفضيله لعلى بن أبى طالب على جميع الصحابة ، ويقول : إنه أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ (٢) وهذا اتجاه شيعى واضح يتعارض مع ماعليه جمهور أهل السنة من وضع الخلفاء الراشدين فى الأفضلية حسب ترتيبهم فى تولى الخلافة ، وقد نقل المسعودى ماقاله المأمون من شعر يبرر فيه تفضيله للإمام علىّ على بقية الصحابة ، وينص فيه صراحة على أنه وصىّ رسول الله ﷺ ، ومن ذلك قوله :

ألام على شكر الوصى أبى الحسن	وذلك عندى من عجائب ذا الزمن
خليفة خير الناس والأول الذى	أعان رسول الله فى السر والعلن
ولولاه ماعدت لهاشم امرة	وكانت على الأيام تقضى وتمتهن (٣)

كما أنه أمر فى عام ٢١٠ هـ / ٨٢٥ برد واحة فدك إلى العلويين من أبناء فاطمة رضى الله عنها ، محتجا لذلك بأن الرسول ﷺ قد تَصدق بها على فاطمة وأن ذلك كان أمرا ظاهرا معروفا لاخلاف فيه بين آل رسول الله ، وأن فاطمة رضى الله عنها كانت أولى

(١) المرجع السابق ص ٣٨١ .

(٢) الكامل جـ ٦ ص ٤٠٨

(٣) مروج الذهب جـ ٤ ص ٣٣٤ — ٣٣٥

بأن يُصدَّق قولها فيما جعل رسول الله لها (١) وهو هنا يلمح الى رفض أبى بكر رضى الله عنه قبول دعواها عندما احتج عليها بحديث رسول الله : « نحن معاشر الانبياء لانورث ماتركناه صدقة »

وفى هذا المجال لانستطيع أن نغفل وصية المأمون الأخيرة لخليفتة المعتصم فى آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، تلك الساعة التى يبر فيها الفاجر ، ويوقن الكافر ... لقد أوصى أخاه بالعلويين خيرا « هؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فأحسن صحبتهم ، وتجاوز عن مسيئتهم ، واقبل من محسنهم ، ولاتغفل صلاتهم فى كل سنة عند محلها ، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى » (٢) كذلك أوصى بأن يكبر عليه فى صلاة الجنازة خمسا كما يفعل الشيعة ، وليس أربعا كما هو الحال عند أهل السنة (٣)

....

لم تتوقف تطلعات زعماء العلويين للوصول إلى منصب الخلافة ، ووقف الموالى من ورائهم يقدمون لهم التأييد والمساعدة ، ففى العام الأول من خلافة المعتصم ٨٢٤/٢١٩ ثار بخراسان محمد بن القاسم بن عمر بن على بن الحسين داعيا للرضا من آل محمد ، وقد كان هذا الثائر معتكفا بالمدينة ، ملازما لمسجد رسول الله ﷺ ، فما زال الموالى يغرونه حتى أخرجوه ، وذلك عندما التقى به رجل خراسانى يدعى أبا محمد كان مجاورا بالمسجد النبوى ، فأعجب بمحمد بن القاسم ، ورأى أنه أحق الناس بالإمامة ، فأخذ يدعو لإمامته بين الخراسانيين الوافدين للحج حتى بايعه عدد كبير منهم ، فخرج معهم إلى خراسان ، وأعلن دعوته هناك ، فأقبل عليه كثير من الناس يبايعونه ، وتولت الدولة الطاهرية حربه حتى هزم هو وأصحابه ، وأرسل إلى بغداد فأودع السجن ، ولكن أتباعه من الخراسانيين استطاعوا أن يعينوه على الفرار من سجنه ، ولم يعثر له على أثر (٤)

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٦ — ٤٧

(٢) الكامل جـ ٦ ص ٤٣١

(٣) المرجع السابق ص ٤٢٩

(٤) الطبرى جـ ٩ ص ٨٢٧ ، والمسعودى جـ ٤ ص ٢١٩ وذكر المسعودى رواية أخرى بجانب الرواية السابقة تشير إلى أنه سجن فى « سرمن رأى » فى بستان وأنه قتل بالسم

ولاشك فى أن هذه الحادثة تؤكد هوية الموالى وتعلقهم بتحقيق حلمهم الكبير المتمثل فى إيصال العلويين إلى إمامة الأمة ، فمع أن محمد بن القاسم كان رجلا معتكفا فى المدينة ، منصرفا بكليته إلى العلم والعبادة ، إلا أنهم مازالوا يلحون عليه حتى أخرجوه ليطالب بالخلافة ، ولم يتخلوا عنه فى سجنه ، فوقفوا بجانبه حتى ساعدوه على الفرار

وشهد هذا العام أيضا ٢١٩ هـ وفاة محمد بن على الرضا الملقب بالجواد ، وهو الإمام التاسع من أئمة الشيعة ، واتهمت زوجة أم الفضل بنت المأمون بأنها وضعت له السم فى الطعام بعد أن رحل بها من المدينة إلى بغداد (١) ويذكر الدكتور حسن إبراهيم ان ذلك ربما تم بإيعاز من عمها الخليفة المعتصم ، خشية منه أن تحدث محمد نفسه بالمطالبة بالخلافة ، بحكم أن أباه كان وليا لعهد المأمون قبل وفاته من جهة ، ولأن للجواد أبناء هم حفدة المأمون من جهة أخرى (٢)

....

وقد حرص الموالى — وهم يحاولون الوصول إلى هدفهم — على أن يشوهوا صورة الخلفاء العباسيين أمام رعاياهم فى كثير من الأحيان ، فشجع بعضهم من ذوى الرأى والمشورة فى الدولة العباسية الخلفاء على ارتكاب أعمال تحط من قدرهم ، وتَسِمَهُم بالغدر ونكران الجميل : فأبو مسلم الخراسانى هو الذى أشار على السفاح بقتل أبى سلمة الخلال فى بعض الروايات ، وهو الذى نفذ جريمة القتل فى كل الروايات تقريبا ، وقد ألحق هذا العمل ضررا كبيرا بسمعة العباسيين الذين اتهموا منذ وقت مبكر بأنهم لجأوا لتصفية الأنصار والأعوان ، كذلك فإن أبا مسلم هو الذى ألح على السفاح كى ينقض الأمان الذى أعطاه المنصور ليزيد بن هبيرة ، ومازال يلح فى ذلك حتى تم قتل ابن هبيرة (٣) وضرب العباسيون بأمانهم عرض الحائط ، ونحن لانستبعد أن يكون هذا السلوك وأمثاله قد تم بوعى كامل وسابق إصرار من جانب الموالى بغية أن يورطوا الخلفاء فى أعمال تحط من قدرهم ، وتباعد بينهم وبين الالتزام بخلق الإسلام وتعاليمه ، فتتزعزع

---

(١) مروج الذهب جـ ٤ ص ٥٢
(٢) تاريخ الاسلام السياسى ... جـ ٢ ص ٧٦
(٣) الكامل جـ ٥ ص ٤٤٠ — ٤٤١

مكانتهم فى نفوس مواطنيهم ، ويبقى الأمل معقودا على وصول آل النبى إلى منصب الإمامة ، ليخلصوا الشعوب مما تعانيه ، وليملأوا الأرض عدلا كما ملئت جورا .

وإذا كنا قد رأينا فى معظم مامر بنا من أحداث أن جمهور الموالى قد ساروا وراء العلويين يمنحونهم التأييد والنصر ، يدفعهم إلى ذلك عقيدة صادقة ، وثقة بآل بيت النبى ﷺ ، وإيمان عميق بأنهم أصحاب الحق الشرعى فى تولى هذا الأمر ... إذا كنا عرفنا ذلك فقد وجد للتشيع وجه آخر قبيح فى صفوف بعض الموالى ، حيث استغل أناس منهم مكانة العلويين فى نفوس جماهير الأمة ، واتخذوا من التشيع لهم ستارا يروجون من خلاله عقائدهم الفارسية القديمة ، محاولين تسريب هذه العقائد إلى داخل العقيدة الإسلامية لتدميرها من الداخل ، بهدف القضاء على الدولة الإسلامية ، وإحياء إمبراطورية الفرس ودياناتها القديمة من جديد ، وقد ظهر ذلك واضحا فى معظم الحركات الهدامة التى ظهرت خلال العصر العباسى الأول .

لعله قد وضح الآن من خلال هذا البحث المتواضع أن الموالى لم يسيروا فى ركاب الدعوة العباسية يمنحونها التأييد والنصر حتى قامت الدولة على أكتافهم إلا على أساس أن ذلك يشكل خطوة مرحلية فى سبيل الوصول إلى هدفهم النهائى ، المتمثل فى إيصال الأمر إلى العلويين ، وأن هذا قد ظهر ظهورا بينا فى مسلك كبار قادة الدعوة كأبى سلمة الخلال ، وسليمان بن كثير ، وأبى مسلم الخراسانى ، ومن أتى بعدهم من الوزراء وكبار قادة الجيش العباسى ، كما ظهر أن هذا التخطيط المتأنى قد وصل إلى غايته تقريبا عندما تمكن الموالى من حمل المأمون على البيعة لعلى الرضا بولاية العهد ، ومحاولة نقل الأمر من العباسيين إلى العلويين .

وإذا كان هذا هو شأن كبار الدعاة والقادة فإن جماهير الموالى لم تتزحزح عن موقفها الموالى للعلويين ، ولم يسيروا وراء الدعوة للرضا من آل محمد التى حمل لواءها العباسيون إلا على أساس أنها لاتعنى غير الدعوة إلى أحقية آل بيت النبى ﷺ من فاطمة بإمامة المسلمين . وعندما أدركوا فى اللحظة الحاسمة أنهم قد خدعوا لم يترددوا فى الخروج مع ثوار البيت العلوى مطالبين برد حقهم المغتصب إليهم .

كما رأينا أن الخلفاء العباسيين الذين اعتمدوا فى الدرجة الأولى على الموالى فى إقامة دولتهم كانوا يدركون هذه الحقائق ، وكانوا يتعاملون مع قادة الموالى ومع جماهيرهم بحذر شديد ، وأن ولاء الموالى قادة وجماهير للبيت العباسى كان دائما محل الريبة والشك من جانب العباسيين ، فلا عجب أن يتعرض كثير منهم للبطش والتنكيل من جانب الخلفاء .

****

مصادر ومراجع البحث

ابن الأثير : (عز الدين أبو الحسن على ت ٦٣٠) الكامل فى التاريخ . دار صادر بيروت ١٩٦٦

ابن خلدون : (عبد الرحمن ت ٨٠٨) العبر وديوان المبتدأ والخبر . ط بولاق ١٢٨٤ هـ

ابن طباطبا : (محمد بن على ت ٧٠٩) الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية . بيروت ١٩٦٦

أحمد محمود صبحى (د) نظرية الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية . دار المعارف القاهرة ١٩٦٩

الأشعرى : (أبو الحسن على ت ٣٣٠) مقالات الاسلاميين ، واختلاف المصلين . النهضة المصرية ١٩٦٩

الأصفهانى : (أبو الفرج) . مقاتل الطالبيين . ط النجف . العراق ١٣٥٨ هـ

البلاذرى : (أبو الحسن ت ٢٧٩). فتوح البلدان . دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٣

حسن إبراهيم (د) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى . النهضة المصرية ط ٩ ١٩٦٩

الريس : محمد ضياء الدين (د) النظريات السياسية الإسلامية . مكتبة الأنجلو القاهرة . الطبعة الثانية

السيوطى : (جلال الدين عبدالرحمن ت ٩١١) تاريخ الخلفاء . القاهرة ١٩٦٨

الطبرى : (أبو جعفر محمد ت ٣١٠) تاريخ الرسل والملوك . دار المعارف القاهرة ١٩٦٨

الفيروزبادى (مجد الدين محمد) القاموس المحيط . ط بولاق القاهرة ١٣٠٢ هـ

المسعودى (أبو الحسن على ت ٣٤٦) مروج الذهب ومعادن الجوهر . دار الفكر بيروت ١٩٧٣

المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . ط بولاق ١٢٧٠ هـ

ناجى حسن : ثورة زيد بن على . بغداد ١٩٦٦

ياقوت : (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى ت ٦٣٩) معجم البلدان . دار صادر بيروت ١٩٥٧